# الفن في عهد العباسيين

كان من نتائج انتقال عاصمة الخلافة الإسلامية في عهد العباسيين من دمشق إلى بغداد القريبة من المدائن عاصمة الفرس القديمة، بجانب استقلال الدولة الأموية الجديدة في الأندلس، أن ازداد ظهور العنصر الفارسي في الشرق سياسيا وثقافيا وفنيا، بينما بدأت تضعف تدريجاً تلك الروابط بين المدنية الإسلامية في أول عهدها وبعض العصر الهيليني القديم، لتحل محلها التقاليد الساسانية بتشجيع كبراء الفرس المسلمين الذين أصبحت لهم مكانة ملحوظة في عهود الخلفاء العباسيين الأولين.

ورغم الإجراءات التي اتخذها الخلفاء العباسيون بعد ذلك للحد من تغلغل العنصر الفارسي، كاتخاذ حراس من الأتراك، وإيثارهم الأقاليم الطورانية الموالية لهم، استطاع بعض الزعماء الفرس المسلمين الاستقلال بأقاليمهم عن السلطة المركزية في بغداد مستغلين عقيدتهم الشيعية؛ واستطاع الفنانون الفرس في عهود البويهيين والصفاريين والطاهريين والسامانيين وغيرهم إحياء التقاليد الساسانية ودفعها إلى الازدهار والانتشار من جديد.. على أن الاتجاهات المضادة في بغداد، والتي كانت تستلهم الأتراك، لم تعدم وسيلة إلى التسلل المنافسة تلك الاتجاهات الفارسية، عن طريق ابن طولون في مصر، وعن طريق آخرين في تركستان وغيرها. على أن ازدياد النفوذ التركي في بغدادوما يتبعها من البلاد الإسلامية سرعان ما قضى على الخلافة العباسية، فاستولى الأمراء السلجوقيون على الحكم. ولم تكن بغداد حينما فتحها المغول سنة ١٢٠٩م سوى ولاية سلجوقية.

وكان الخليفة العباسي المنصور حينما شرع في بناء عاصمته الجديدة على شط دجلة، قد اختار لها تخطيطا على شكل دائرة كاملة، يحيط بها سور رئيسي ذو أبراج مستديرة، وسور آخر أمامي. وجعل المساحة السكن فيها أربعة مداخل ضيقة طويلة، مرتبطة بشارع دائري من الداخل والخارج، وبذلك تقسمها إلى أربعة أرباع دوائر،

يشتمل كل منها على أزقة متشعبة يتراوح عددها بين ثمانية واثني عشر. أما الطرق المؤدية إلى المركز فكانت على هيئة بوائك مكشوفة، وأقيم قصر الخليفة والجامع في الوسط منعزلين (رسم ٨). وقد كرر المنصور هذا التخطيط عند بناء مدينته الجديدة بالقرب من الرقة القديمة على نهر الفرات، وجعلها على هيئة حدوة الفرس. وقد اتخذها الخليفة الرشيد فيما بعد مقرا له فيما بين سني ٧٩٦ و٨٠٨ م، وبقيت أسوارها المبنية باللبن والمحصنة بالأبراج محتفظة بأشكالها.

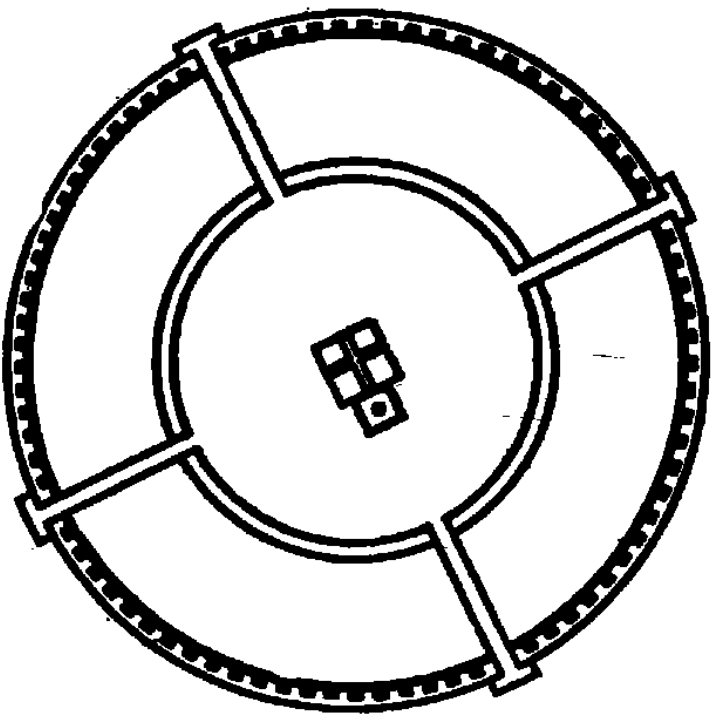

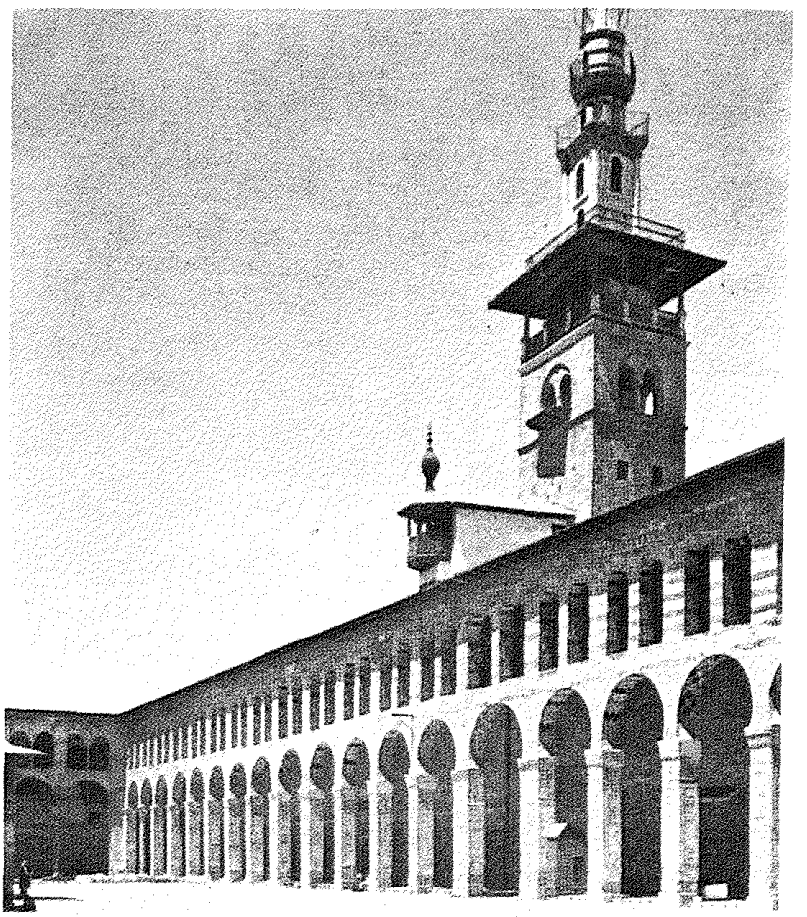

رسم ٨– مخططلمدينةالخليفة المنصور على شكل دائرة كاملة

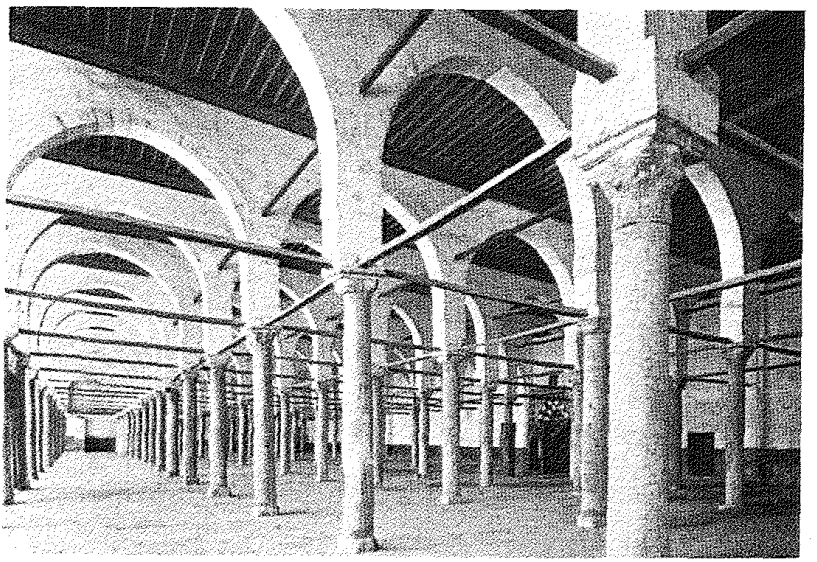

صورة ١ فوق – صحن الجامع الأموي في دمشق

صورة ١ تحت – حرم جامع عمرو بالقاهرة

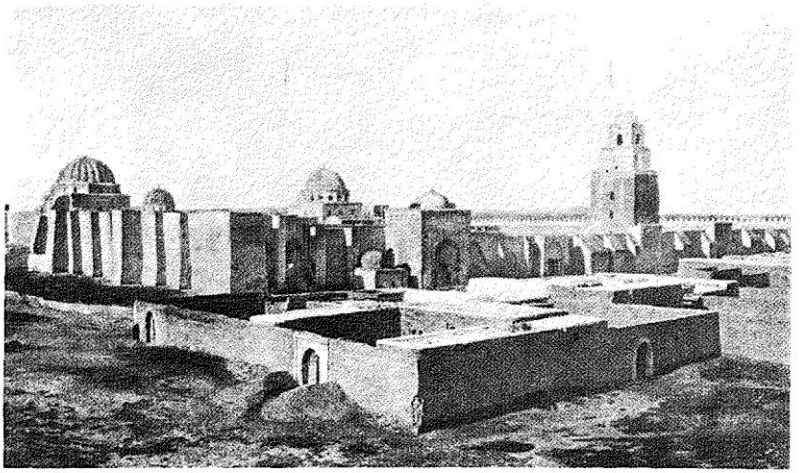

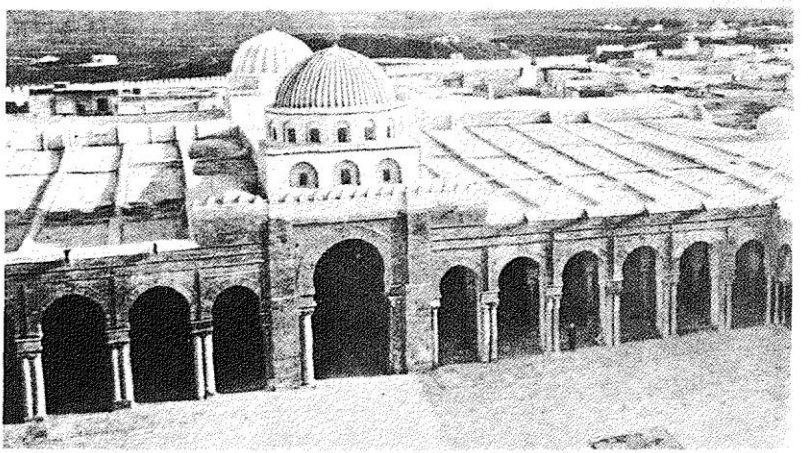

صورة ٢ فوق – مسجد سيدي عقبة بقيروان من الخارج

صورة ٢ تحت – رم المسجد من فوق

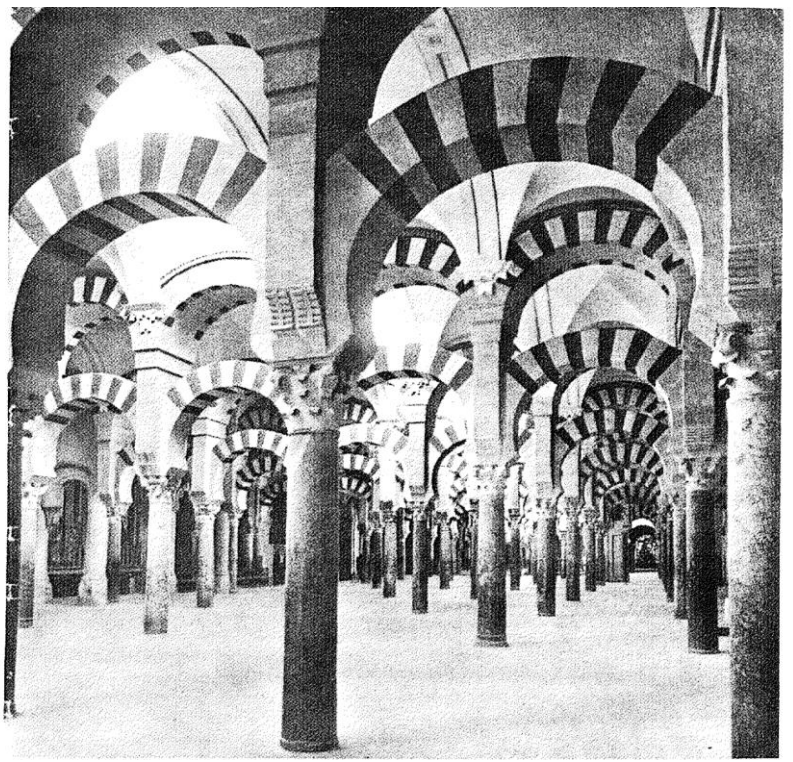

صورة ٣ – حرم الجامع في قرطبة

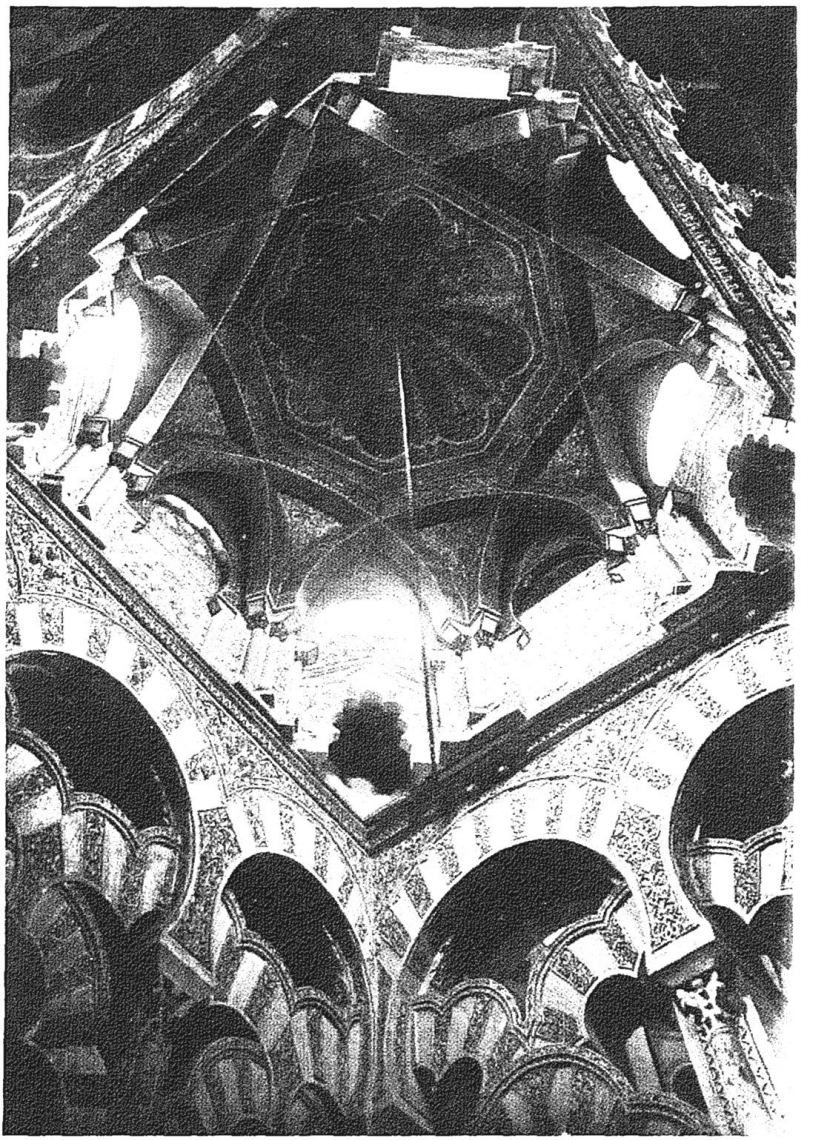

صورة ٤ – منظر قبة الجامع في قرطبة من أمام المحراب

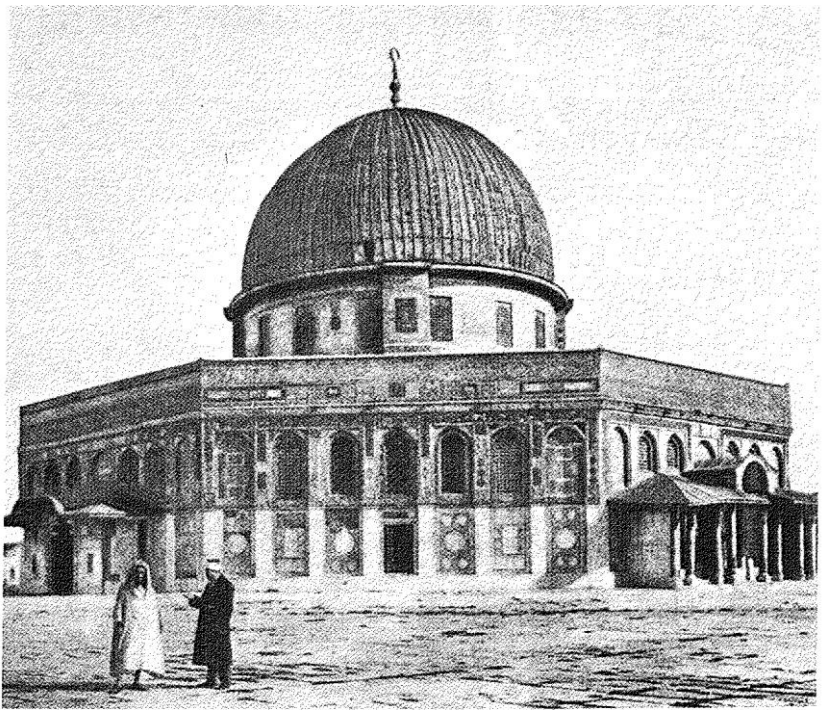

**صورة ٥ – قبة الصخرة في القدس**

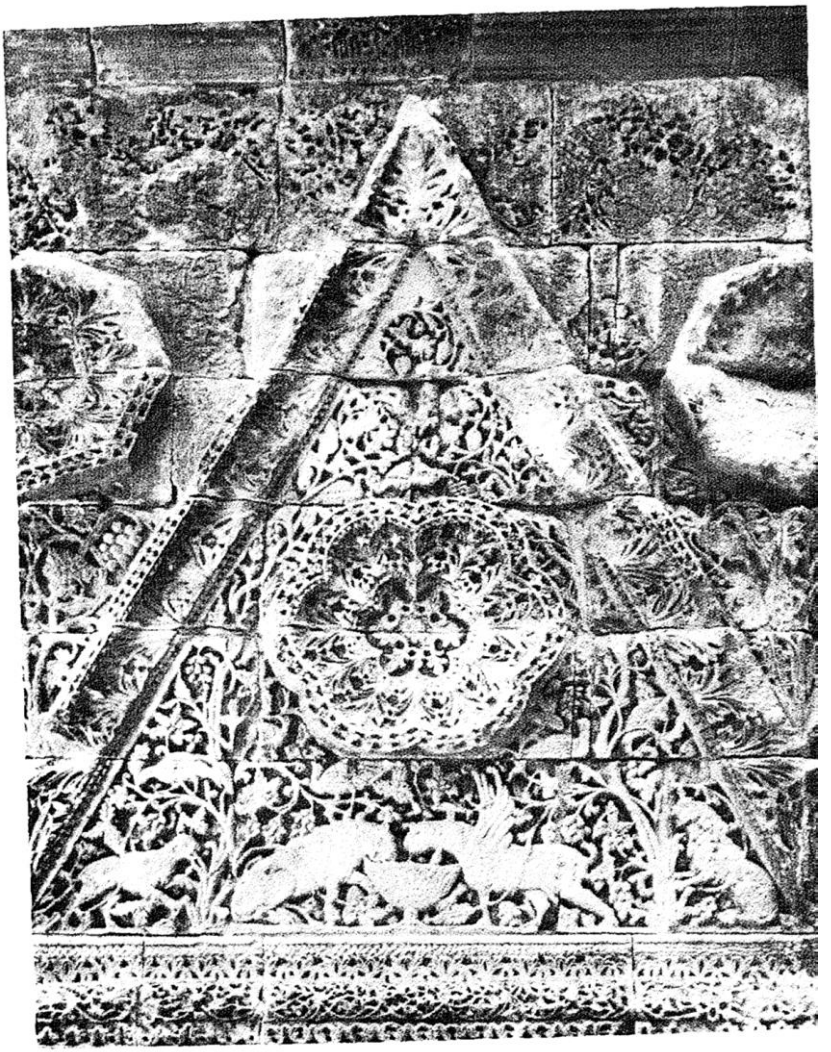

صورة ٦ – قصر المشتى: قطعة مأخوذة من شمال الواجهة

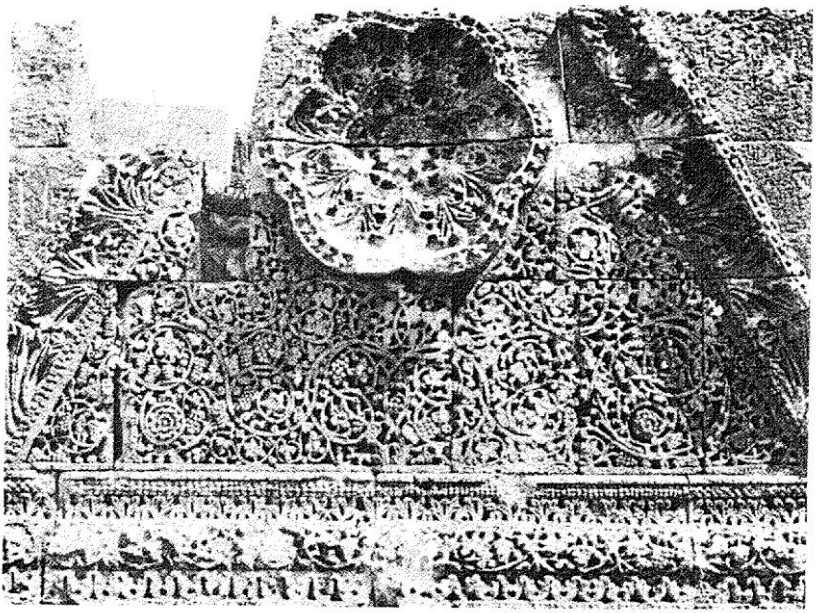

صورة ٧ – قصر المشتى: قطعة مأخوذة من يمين الواجهة

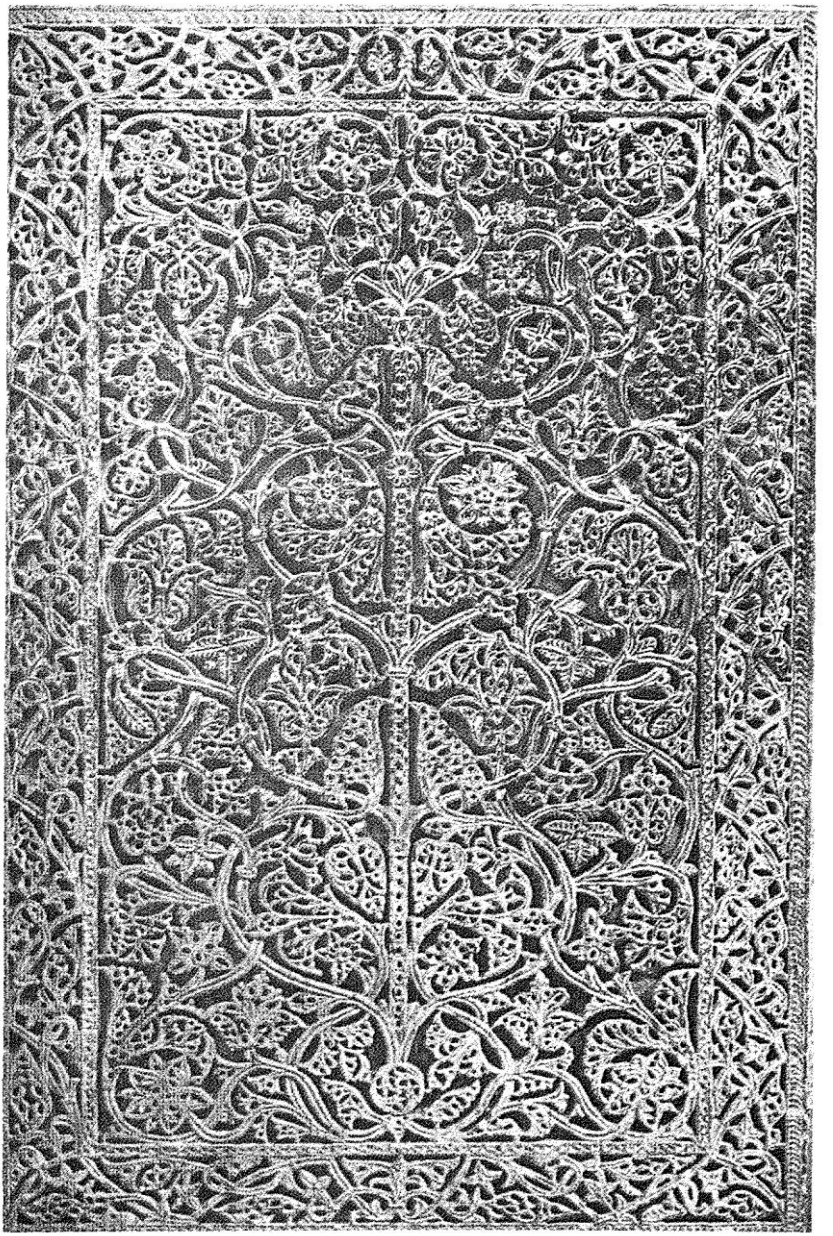

صورة ٨ – لوحة مرمرية بجانب المحراب في جامع قرطبة

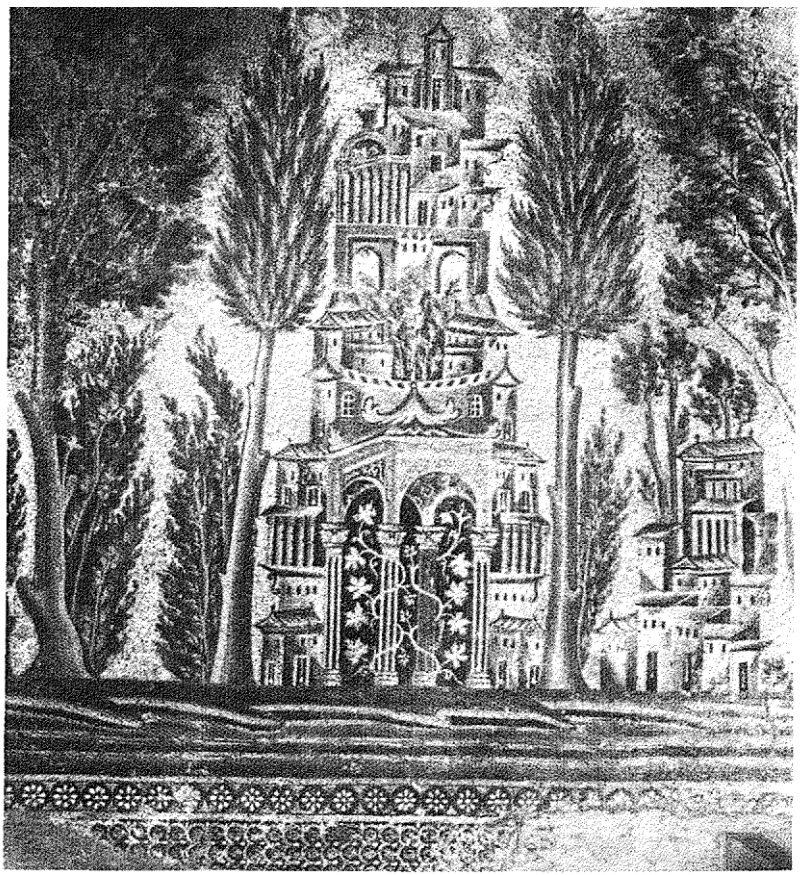

صورة ٩ موزاييك في صحن الجامع الأموي بدمشق

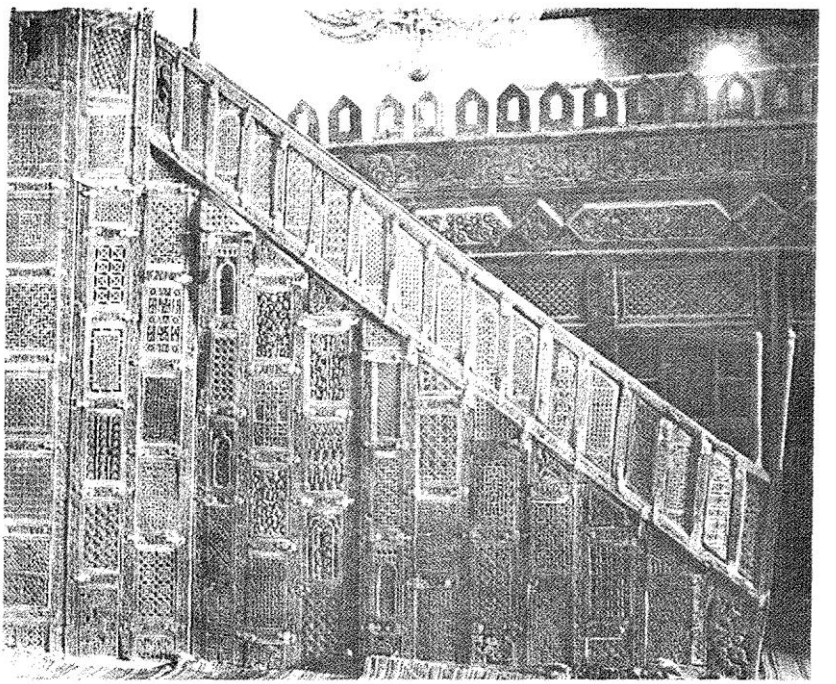

صورة ١٠ – منبر الجامع بقيروان

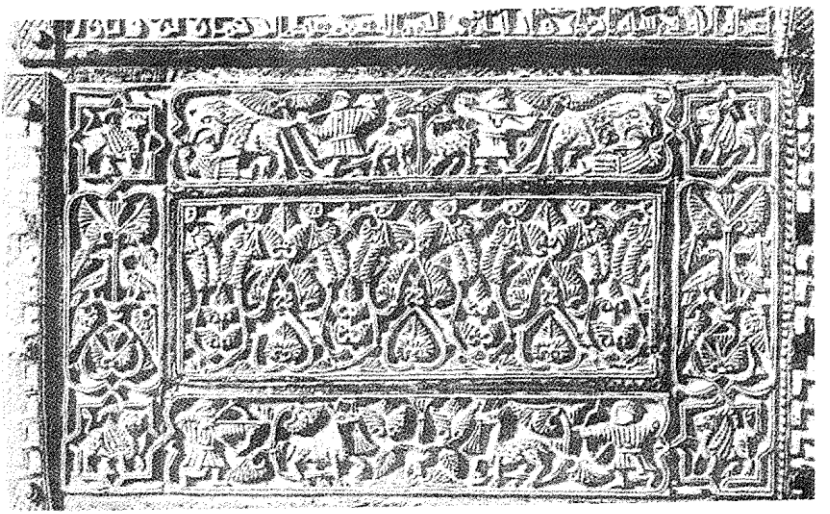

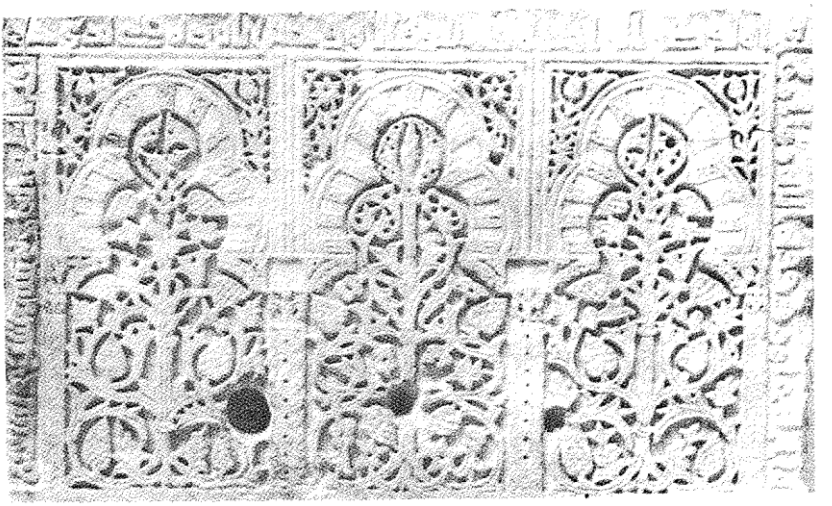

صورة ١١ فوق – صندوق من العاج في مدينة بلنسيا

صورة ١١ تحت – مغطس من المرمر في متحف الآثار بمدريد

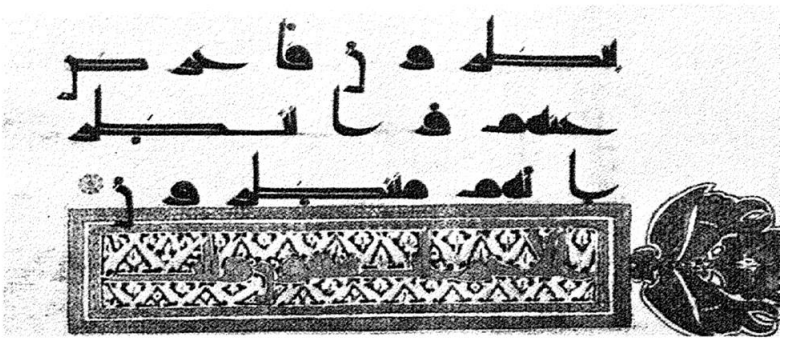

**صورة ١٢ فوق – علبة من العاج في متحف لوفر باريس**

**صورة ١٢ تحت – صفحة من القرآن الكريم بالخط الكوفي**

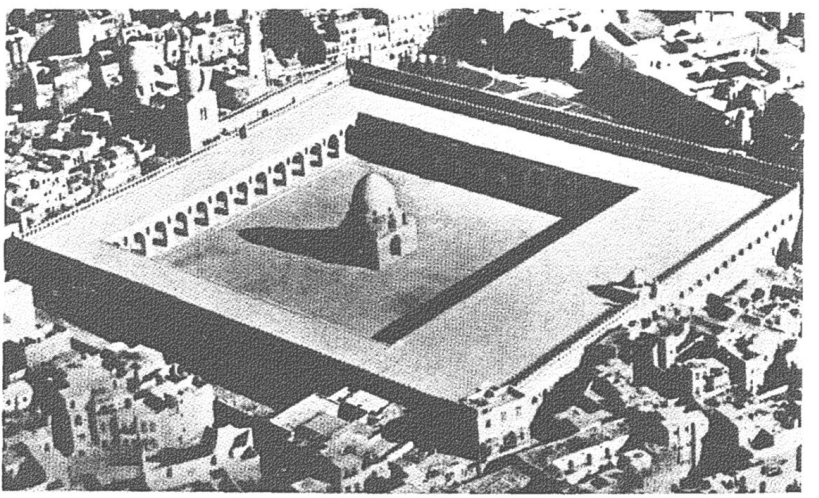

**صورة ١٣ فوق – لجامع الكبير في سامرا**

**صورة ١٣ تحت – جامع ابن طولون في القاهرة (من فوق)**

**صورة ١٤ – داخل جامع ابن طولون بالقاهرة**

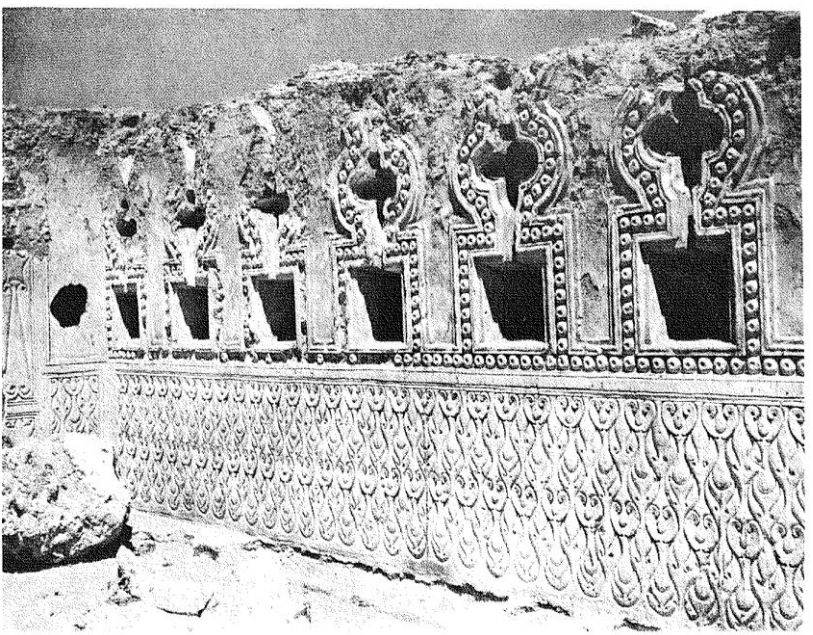

صورة ١٥ – حائط مزخرف من الجص بقصر بلكوارا في سامرا

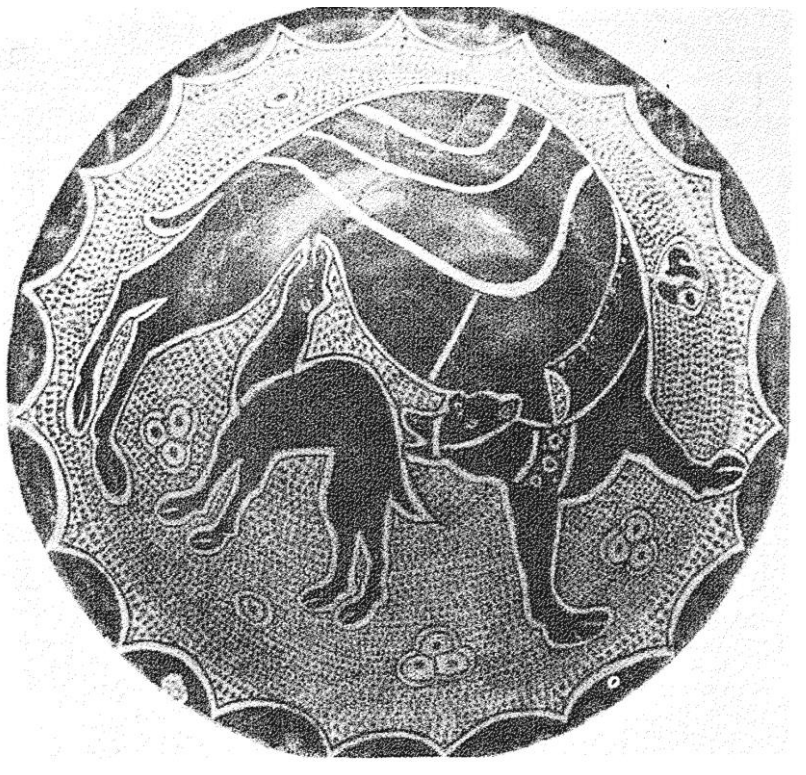

صورة ١٦ فوق – قطعة من البلاط المعروف ببلاط سامرا في متحف لوفر بباريس

صورة ١٦ تحت – لوحة لراقصات موجودة في قصر الخليفة بسامرا

وتعتبر مدينة سامرا المقامة على دجلة شمالي بغداد أهم المدن العباسية، وقد أنشئت في عهد المعتصم، واتخذت عاصمة فيما بين سني ٨٣٨ و٨٨٣ م. وهي تمتد حوالي ٣٣ كيلومترا على النهر، وقد تركز فيها كل ما له علاقة بالخليفة. ودلت آثارها التي كشفها هرتسفيلد فيما بين سني ١٩١١ و ١٩١٣ على كثير من مظاهر النشاط الفني العباسي كالشوارع والجوامع والقصور والمساكن والمجاري.

## المساجد:

كان الجامع الكبير الذي بناه المنصور في مدينته بغداد ذا جدران من اللبن، وكانت أعمدته وتيجانها من الخشب، وقد زاد عليه الرشيد سوراً جديداً حوله من

الأجر، ولم يبق منه الآن سوى المحراب المصنوع من قطعة واحدة من المرمر على الطراز الأموي.

ومع تقدم العراق، أصبح البناء كله بالآجر، واستعيض عن الأعمدة ذات الحجر الواحد بدعامات مبنية تزود غالبا بأعمدة ملحقة بها تقوم عليها عقود مدببة أو نصف دائرية. وكانت صفوف الدعائم مرتبطة موازية لجدار القبلة إلا فيما ندر، على نقيض النظام المتبع في الجوامع ذات الأعمدة، واستغني بذلك عن توسيع رواق المحراب وإقامة قبة عليه. كما أصبحت المئذنة تقام منعزلة خارج جدار المسجد.

ويعد جامع سامرا الكبير المشيد في عهد المتوكل (٨٤٦ – ٨٥٢) أروع المنشآت ذات الأثر في تلك الفترة. وقد أقيم على رقعة مستطيلة ضلعها الأكبر ٢٦٠ متراً والأصغر ١٨٠ متراً، وكان سطحه بغير عقود، ويرتكز على دعائم مثمنة الأضلاع ترتبط بها أعمدة من الرخام. وحوله من الخارج سور ذو ابراج مستديرة كما في جوامع المعسكرات والأربطة، وتقوم مئذنته الملويةخارج السور على هيئة برج حلزوني مصعده من الخارج على غرار الأبراج البابلية المدرجة (الزيجورات) والمنشآت الصينية في عهد تانج (صورة ١٣ فوق). وشيد في سامرا جامع أصغر قليلا هو جامع أبي دلف، وله برج مماثل ويرتكز سقفه على عقود مدنية تمتد عمودية حتى جدار القبلة. كما أنشئ في حي الرصافة ببغداد سنة ٧٨٥ م جامع لم يعرف عنه سوى أنهكان ذا صحنين، كما أن الآثار الباقية من رباط الرقة لا تعطي صورة كاملة عن تخطيطه الأصلي.

أما المساجد الفارسية في ذلك العهد، فلا توجد مراجع في شأنها يمكن الاعتماد عليها، وبين بقايا الجامع الذي بني سنة ٨٧١ م في شيراز أعمدة مبنية من الآجر، ذات عقود مدببة وسطح من العوارض. كما يبدو أنه مثل هذه السنائد استخدمت في مسجد الجمعة القديم بأصفهان (٧٦٠–٧٦٢ م) وقد أقيمت مئذنته فوق واجهة القبلة. أما جامع تركستان فبقي صحنه وقاعة أعمدته فترة غير قليلة. وكان في مدينة مرو بخراسان سنة ألف ميلادية ما لا يقل عن ثلاثة جوامع كبرى خاصة بصلاة الجمعة.

وما زال الجامع الرائع الذي بناه أحمد بن طولون في مدينة القطائع بمصر (٨٧٧ – ٨٧٩ م) في حالة جيدة، وهو على طراز جامع سامرا، وفي مصلاه عقود بدبية قائمة على خمسة صفوف من الدعائم، وتندمج فيها أعمدة مبنية أيضا بالآجر، وفي الجدران فوقها نوافذ تخفف من ضغطها. وقد اقتبست بعض الكنائس الرومانية طراز تلك العقود المدية. ولا يعطي البناء صورة الحصن وإن كانت واجهته الخارجية منظمة بحنايا مستديرة ونوافذ متوجة بشرف كثيرة. وأقيمت مئذنته خارجه فوق قاعدة مربعة بمصعد داخلي، بتمشي حلزونيا مع درج خارجي. وقد جدد تاجه فيالقرن الثالث عشر وغير فيما نظن.

## القصور والمساكن:

من المرجح كثيرا أن القصر الساساني الباقية آثاره حتى الآن في موضع مدينة المدائن الفارسية القديمة على نهر دجلة، كان باقيا كله بحالة جيدة في العهد الإسلامي الأول، ولا شك في أن المعماريين العباسيين اقتبسوا منه نظام البهو الهائل المقبب والإيوان، فقد ظهر ذلك في كثير من منشآتهم.

كما يرجح أن قصور الحكام تأثرت في تخطيطها بقصر معسكر اللخميين الذي كان قائما في الحيرة، وضاع كل أثر له. وفي مقدمة القصور التي تأثرت به: قصر أخيضر، وقصر بلكوارا. وقد أقيم الأول على بعد نحو ٤٠ كيلو متراً غرب الجنوب الغربي لكربلاء، واتخذه أمراء القرامطة مقرا لهم في القرن التاسع، وكانوا يستندون في سلطانهم على قبائل البدو النازحة إلى العراق. وللقصر عدة ملحقات محصنة بأبراج، وسور خارجي متين به أربع بوابات، ومر الدخول إليه على مدخل واحد. ويشبه في تخطيطه قصر المشي من حيث وجود ردهة في الوسط تلي المدخل، وصحن للاحتفالات وقاعة للاستقبال، ومنازل جانبية للحريم حول أربعة أفنية أخرى. وعن يمين المدخل أقيم جامع تميزه حنية. وشيد القصر بقطع الحجارة، مع استخدام الآجر في منشآت القبوات ذات العقود المستديرة والمدببة، أو لمحض الزخرفة وتشكيل

مسطحات السور (رسم ٩). ومن المحتمل أن يكون القصر الذهبي الذي بناه المنصور وسط مدينته المستديرة قد أقيم على هذا النظام، إذكان به فناء للاحتفالات وإيوان وقاعة عرش، فضلا عن قاعة القية العليا الخضراء التي تهدمت سنة ٩٤١ م.

رسم ٩ – تصميم حديث لصحن الشرف في قصر الخيضر

أما قصر بلكوارا، فقد بناه الخليفة المتوكل لابنه المعتز بالقرب من سامرا، على غرار قصر الحيرة (رسم ١٠). وبه عدة أفنية كبيرة متابعة، وعدد من قاعات العرش المتعامدة ممتدة على طوله على هيئة أبهاء مكشوفة لها واجهات مؤلفة من ثلاثة عقود. وعن يمين وسطه ويساره تمتد أروقة بها عشرات من المساكن لكل منها فناء خاص. وينتهي ذلك كله بحديقة تتجه نحو نهر دجلة ممتدة إلى ما وراء السور الخارجي، وبها حوض ماء ومرسى للزوارق.

وفي نحو سنة ٨٨٠ م أقيم على الضفة الغربية لدجلة قصر العاشق، وفي داخله قصر أصغر كثيرة مماثل له في التخطيط. وما زال باقية من قصر الجوسق في سامرا بهو مدخل منيف طويل.

وكانت بيوت الأفراد كلها من طبقة واحدة، وتمتد غالبا طولا بمحاذاة النهر، وعددها حوالي ٥٠ بيتا مبنية باللبن على غرار المساكن الجانبية بقصر بلكوارا، ولها مدخل مسقوف يؤدي إلى فناء مستطيل تحيط به مساكن وأسواق. وفي كل منها قاعة كبرى على شكل T وحجرتان في ركنين على الجانب العرضي. وهذا النظام نفسه كان يتبع في المساكن الأكبر، مع أبهاء مكشوفة ذات أعمدة وحجرات تحت الأرض تتصل بسراديب للالتجاء إليها صيفة. وكانت هذه البيوت كلها مزودة بالحمامات والمجاري.

وما زالت في الرقة على نهر الفرات بقايا للقصر الذي شيده الرشيد هناك. ولا توجد معلومات كافية عن قصر الميدان الذي بناه ابن طولون في رباطه ويظن أنه تأثر كجامعه بمنشآت عراقية، كما أن الحفريات التي تولاها متحف المتروبوليتان في نيسابور لم تلق الضوء الكافي على المساكن التي أقامها السامانيون هناك في القرن التاسع.

ومن المرجح أن بعض الأفكار المعمارية العراقية نقلت إلى شمال إفريقيابواسطة الأغالبة في القيروان الذين كانوا موالين للعباسيين. وفي القصر القديم الذي شيد سنة ٨٠١م قرب العاصمة وأطلق عليه اسم والعباسية، ما يدل على ذلك. وقد نقل البلاط سنة ٨٦٧ م إلى قصر "الرقادة" الذي أقيم على غرار انصر البحر، بها. وبه حوض ماء كبير.

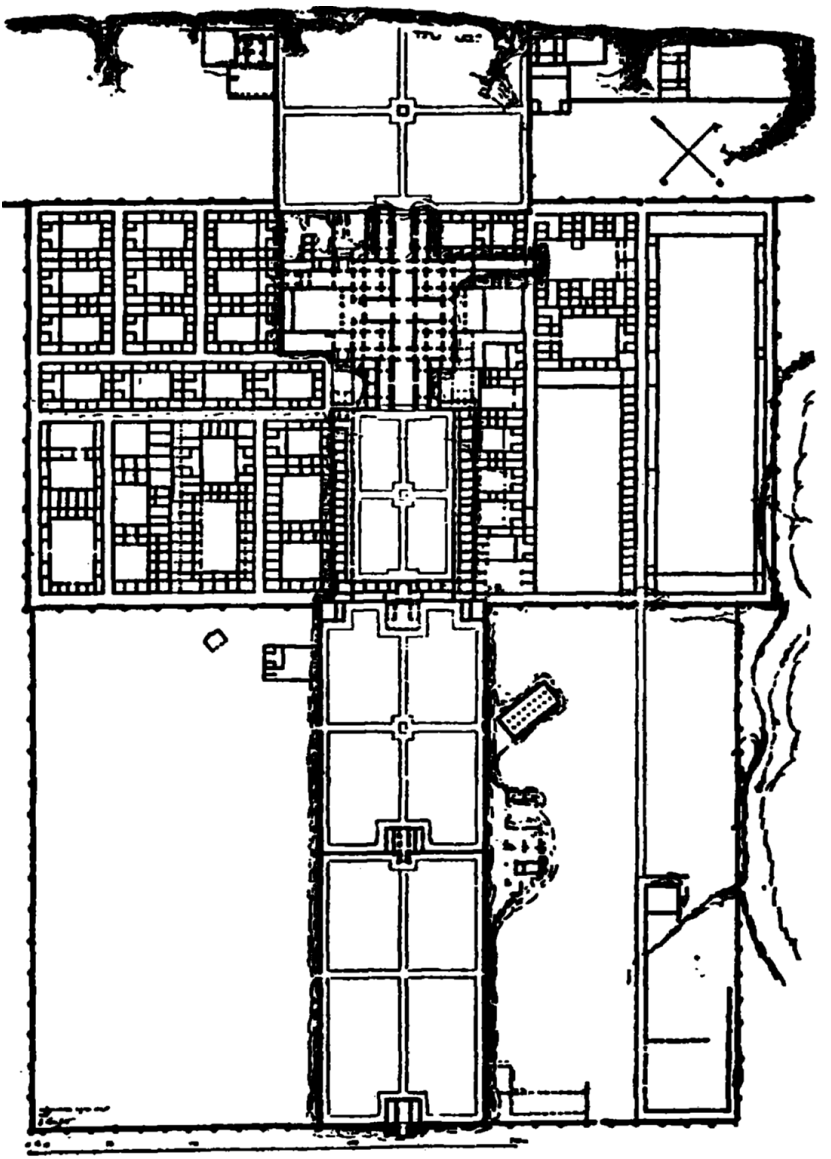

رسم ١٠ – تصميم لقصر بلكوارا بقرب سامرا